تـــاتـــو (Tattoo)

عـــادل نـصّـــار ❖

على غير العادة لم يمرّ عيدُ رأس السنة هذا العام سلسًا ومن دون أحداثٍ دراماتيكيّة... أقلّه بالنسبة إليّ .

فأنا منذ سنوات اعتدتُ أن أقضي ليلتي هذه في أحد النوادي الليليّة وحيدًا، أتجرّع ما هو فوق طاقتي المحدودة من المشروبات الغازيّة والمعدنيّة لأنّه لا يليق بالساهر أن يقضي ليلتَه يرقص ويمْرح لقاءَ زجاجةِ بيريه مثلاً أو سڤن آپ. وهذه المسألة وحدها كانت تقضّ مضجعي طوال السهرة، وتُشعرني بالضعف وانعدام الثقة بالنفس

فكلّما دخل أحدُهم النادي ولم يجد مكانًا يجلس فيه، وزّعتُ نظراتي على صاحب المكان وعمّاله باحثًا عن حقيقةٍ ما يجول في خاطرهم: فهل سيطلبون إليَّ مقعدي ليقدّموه إلى الزبون الجديد، أمْ يتوقّعون أن أعْرضه عليه من تلقاء نفسي بحجّة «تعبي» من الجلوس ـ أنا الذي لا يستطيع الوقوفَ ولو دقائقَ معدودةً بسبب الروماتيزم الذي اشتدّتْ وطأتُه عليّ مؤخّرًا جرّاء إهمال زيارتي الطبيبَ لشحّ الأموال؟

في تمام الثامنة افتُتحتْ سهرةُ رأس السنة هذا العام في sector 34، وهي حانةٌ جديدةٌ يملكها صديقٌ لي يساريٌّ سابقٌ يمارس التجارةَ حاليّاً. جلستُ على البار بمحاذاة فتاةٍ ذاتِ ملامح شرقيّة، ترتدي فستانَ سهرةٍ أحمرَ قصيرًا، له فتحةٌ عند الصدر، ينهض من خلالها نهدان متكوّران جميلان كأنّهما يستعدّان للانقضاض على عدوٍّ ما. أحسب أنّ الأمر يتعلّق بحمّالة النهدين: فأنا ما عدتُ أقتنع سريعًا بما تُظهره الإناثُ من تفاصيلَ مغرية. وما أقوله ليس من باب التحامل: فقد تعرّضتُ لمواقفَ مشابهةٍ أظهرتْ زيفَ ما يملكه بعضُهنّ، وأنّ الأمرَ لا يعدو أحيانًا أن يكون مجاراةً للموضة رغم ما تحْمله من أضرار لهنّ.

بعد أن فرغتُ من تأمّل المرأة الثلاثينيّة، طلبتُ سڤن آپ وكأسًا صغيرةً مع ثلج وشرحةَ حامضٍ طبيعيّ . شرعتُ في إفراغ العبوة في الكأس، مأخوذًا بهذه المهمّة التي أنفّذها ببرودة أعصابٍ وسهيانٍ مطلق. قطعتْ عليّ سهياني جارتي. اعتذرتْ بدايةً وطلبتْ إليّ أن أشعل سيجارتَها من ولّاعتي، فلبّيتُ طلبها، ملاحظًا أنّنا ندخّن الماركة ذاتها، وأنّ هذا أمر جيّد. فمن تنفد سجائرُه أولاً استعان بالآخر. أجابتني سريعًا: «أرجو ألاّ تكون أشرَه منّي في التدخين، فالمصيبة عندها ستقع على رأسي وحدي.» ضحكنا وقرعْنا كأسيْنا نخب تعارفنا.

أسعدني بدايةً أنها لم تسألني، كغيرها من اللواتي تعرّفتُ إليهنّ في الحانات، عن سبب ارتيادي إيّاها مادمتُ اكتفي بالمشروبات الغازيّة. على العكس، شرعتْ تتحدّث عن نفسها. فذكرتْ لي أنّها أميركيّة من أصل فلسطينيّ، جاءت إلى لبنان لتُسهم في إعادة إعمار مخيّم نهر البارد، وأنّها مهندسة معماريّة تريد أن تتبرّع بجزءٍ من وقتها في خدمة هذا المشروع تعبيرًا عن تضامنها مع أبناء شعبها الذي طال عذابُه وآن الأوانُ لإقرار حقوقه. أثنيتُ على كلامها وشجّعتُها في مسعاها، وهي مَن اعتاد الحياةَ الرغيدةَ في الولايات المتحدة. استنكرتْ ما قلتُه، ولاسيّما أنّها تعتبر نفسَها فلسطينيّةً في المقام الأول والأخير وتكره السياساتِ الأميركيّةَ حيال القضيّة الفلسطينيّة. وأضافت أنّها ترفع نخْبَ جميع الحركات المقاومة للسياسة الأميركيّة، ولو كانت من النوع الإسلاميّ أو المتطرّف أو الذي يبدو وكأنّه يعمل لصالح دولٍ إقليميّة. رفعتْ كأسَها بمحاذاة صدرها، فلمع نهداها تحت الأنوار الخافتة. فكّرتُ لهنيْهة: أأجاريها في ما تقوله طمعًا برفقةٍ لهذه الليلة، أمْ أفتح النقاشَ على مصراعيه مدقّقًا في تناقضات حياتها؟ سهوتُ عنها لحظةً، وجحظتْ عيناي إلى كأس نبيذها الأحمر وإلى صدرها المكتنز.

سألتني لِمَ لا أرفع نخبَ المقاومة الإسلاميّة؟ توالت الأسئلةُ والأجوبةُ في ذهني كقصف عشوائيّ. ما لهذه الفتاة وحياتنا؟ لماذا تأتي لتسمِّمَ حياتي في سهرةٍ كنتُ أنوي أن أقضيها هادئًا، فإذا بها تضعني بين نارَي الإغراء والتضليل السياسيّ؟ ماذا تعني لهذه الفتاة المقاومةُ الإسلاميّةُ التي تقتطع جزءًا من البلاد لتكتم أنفاسَ المقيمين فيها ولتُنزل عليهم شتّى أنواع المراقبة حتى في أدقّ تفاصيل

❖ ـ كاتب من لبنان

حياتهم؟ ما لهذه الفتاة والمقاومة إذا كان ممنوعًا عليها، هي نفسها، أن تعيش في الضاحية الجنوبيّة كما يحلو لها أن تحيا في شارع الحمراء أو أميركا؟ حرت في أمري: أأجادلها أمْ ألوذ بالصمت؟

لاشعوريّاً رفعتُ نخبَ المقاومة الإسلاميّة وغازلتُها محاولاً حَرْفَ الحديث في اتجاهٍ اخر. قلتُ إنّها تملك جسدًا رائعًا، وإنّ فستانها يُبرز مفاتنَها بشكلٍ لافت. شكرتني على ذوقي الرفيع، وشرعتْ في الكلام على العناء الذي تكبّدتْه والمالِ الذي دفعتْه للحصول عليه. أشعلتُ سيجارةً أخرى وقلتُ إنني سأذهب إلى المرحاض. حيّتني برفع كأسها.

حين وصلتُ إلى المرحاض وجدتُ عدّة أشخاص ينتظرون أمام الباب. رحتُ أعيدُ ترتيبَ الحكاية من أوّلها: فتاة أميركيّة، من أصل فلسطينيّ، تأتي إلى لبنان، لتُسهم في إعادة إعمار مخيّم نهر البارد. متحرّرة، عصريّة، وتؤيّد الحركات الإسلاميّة! قلّبتُ المسألة على أوجهٍ عديدة، ولم أستبعدْ عمالتَها لأحد أجهزة الاستخبارات الأميركيّة. دخلتُ المرحاضَ شاردَ الذهن. زررتُ البنطالَ وشددتُ الحزام وعدتُ أدراجي.

حين وضعتُ يدي على كتفها اليمنى، انزاح كمُّ الفستان وظهر تاتو [وشمُ] المقاومة الإسلاميّة في لبنان. سألتُ باستغراب لماذا تضعين شعارَ المقاومة اللبنانيّة، لا الفلسطينيّة؟ أجابت، بضحكةٍ عالية، أنّها رسمتْ صورةَ أحد قياديّي حركة حماس في مكانٍ لا تستطيع أن تُطْلعني عليه. تملّكتني الدهشةُ وجلستُ واهنًا على الكرسيّ.

بعد لحظاتٍ من الصمت استأذنتني في الانصراف لتمضية بقيّة السهرة مع أصدقائها. تصافحنا أملاً في أن تجْمعنا المصادفةُ في وقتٍ قريب.

تناولتُ علبة سجائري فوجدتُها فارغة. لقد استنفدتْ سجائرَها وسجائري، وعكّرتْ صفو مزاجي الذي مهّدتُ له السبيلَ طوال النهار. خرجتُ قاصدًا الميني ماركت لابتياع السجائر. وقرّرتُ النزولَ إلى البارومتر، وهو نادٍ ليليّ يقع عند طرف شارع بلس، يقصده شتّى صنوف اليسار وجمعيّات المجتمع المدنيّ، إضافةً إلى العاملين في الصحافة والتلفزيون، وتتحوّل سهراتُه في مثل هذه الأوقات إلى أجواء راقصةٍ فوضويّةٍ لا تنتهي إلاّ مع بزوغ الفجر.

فجأةً، وأنا أهمّ بالدخول، رنّ هاتفي المحمول. وإذا بصديقي بشارة يقصفني بسلسلةٍ من الأسئلة، تصاحبها ضحكاتٌ صاخبة، ويدعوني إلى التوجّه إلى مقهى «ة مربوطة،» وهو مكانٌ يقصده اليساريّون من مختلف أنحاء العالم وله سمعةٌ طارت إلى أوروبا وأميركا. ما إن وصلتُ الى المكان المقصود حتى وجدتُ مجموعةً من الأصدقاء يحتسون الوسيكي والڤودكا، وضحكاتُهم تصل إلى الشارع المحاذي. حييتُهم فازدادوا ضحكًا. تركتُهم وهممتُ بالدخول إلى المقهى فلاحت لي صديقتي الأميركيّة منهمكةً في تبادل القبل والعناق مع إحدى الفتيات. ما إن رأتني حتى حيّتني، فعدتُ أدراجي إلى أصدقائي، مشاركًا إيّاهم الضحك، من دون أن يعرف أيٌّ منا أسباب ضحك الآخر.

بيروت